من السبت إلى السبت

الأدب..في موكب الثورة..!

■ مساء السبت ليلة الـ٢٦ من سبتمبر تلقيت اتصالاً هاتفياً من إذاعة صنعاء وطلب مني المذيع المتحدث الإجابة على بعض الأسئلة المتعلقة بدور الشعراء في الحركة الوطنية وإشعال اليقظة والحماس في نفوس أبناء الشعب، وبالرغم أن الوقت كان متأخراً والأعصاب مسترخية للراحة والنوم إلا انني تحدثت للمذيع عما جادت به القريحة في تلك اللحظة، وتذكرت بعض الأبيات للشاعر الكبير محمد محمود الزبيري الذي اشعل الثورة بشعره وأمثاله من شعراء الحركة الوطنية كالموشكي والعزب وغيرهم فقصيدة الزبيري (صرخة إلى النائمين) كانت من أهم القصائد التي توقظ النائمين فعلاً والتي مطلعها:

ناشدتك الأحساس يا اقلام اتزلزل الدنيا ونحن نيام
قم يا يراع إلى بلادك نادها ان كان عندك للشعوب كلام
نخشى سيوف الظلم وهي كليلة ونقدس الأصنام وهي حطام

● ثم سألني المذيع عن رأيي حول الأدب والثقافة في الماضي والآن.. فقلت له للأسف لم يعد للأدب والثقافة فاعلية كفاعليتها في الماضي فالزبيري على سبيل المثال كان لشعره وقعاً وتأثيراً كبيراً في نفوس الجماهير وكان دوره لا يقتصر على صياغة الشعر كشاعر وإنما كان شاعراً ومناضلاً ووطنياً من الدرجة الأولى ولو أنه أراد أن يعيش في القصور مرفهاً منعماً لكان بامكانه ان يفعل ذلك لكنه أبى ان ينعم بينما الشعب يعاني من الظلم والقهر والفقر.. ففي باكستان مثلاً عندما كان متغرباً بعيداً عن وطنه قال أربعة أبيات بعنوان (إعلان مروع) تكتب بماء الذهب لما تضمنته من أدب راق وثقافة متميزة قال الزبيري:

قوضت بالقلم الجبار مملكة كانت بأقطابها مشدودة الطنب
فإن فشلت ولم أنهض بدولتنا الكبرى لشعبي ولم أظفر بمطلبي
فسوف ابني له مجداً من الأدب العالي يبوءه في أرفع الرتب
ولن يكون الذي قد كان من حدث مروع غير إعلان عن الأدب

● ويقول الزبيري -رحمه الله- قال لي الأديب العربي الكبير الأستاذ عمر بهاء الدين الأميري بعد أن استمع إلى هذه الأبيات:

أحمد اسماعيل الأكوع

الستة بهذا المعنى المتجبر تشبه (نيرون) الذي أحرق روما ليستلهم الشعر والغناء؟ فقلت له: بلى بيني وبينه تشابه الأضداد: أنه يحرق الشعب ليتغنى أما أنا فإني أحرق الطغيان واقدم جثته للشعب أغنية مدوية تحترق.. ومن ثم تتحول وقوداً فنياً يحرك إرادة الشعب»..

وعمر بهاء الدين الآنف الذكر كان صديقاً للزبيري وكان يشغل منصب سفير المغرب في باكستان حينذاك على أن الزبيري لم يكن شاعراً خاصاً باليمن فقط بل شاعراً عربياً أيضاً.. حكى لي بعض من كانوا في مصر قبيل العدوان الثلاثي على مصر وكانت القيادة المصرية قد وضعت مخيماً كبيراً في الجيزة للمتطوعين من العرب لمواجهة العدوان، وبينما كان قائد المعسكر أبو الفضل الجيزاني يخطب في الشباب المصري والعربي من المتطوعين وإذا بالزبيري يدخل إلى المخيم ويأخذ الميكرفون من يد أبو الفضل ويتحدث قائلاً: أيها الشعب المصري العظيم:

لا تخف من خطب وكن أنت خطباً وحريقاً وشعلة من نار
انت في عالم الصراع فهيء لك زند المصارع الجبار
انت ان لم تكن انت وإلا مت قهراً تحت وطأة الأعصار

ولم يكمل قصيدته حتى تحول من في المخيم إلى شعلة من حماس أي أن جمهور المتطوعين صاحوا صيحة رجل واحد مطالبين الجهاد ضد العدوان المرتقب على مصر فلم تستطع قيادة المعسكر ان تهدئ الشباب الثائر وتسيطر على الموقف مما اضطر الحكومة المصرية حينذاك إلى استخدام القوة ضدهم واعتقال العديد منهم.. وهكذا نرى كيف استطاع الزبيري بشعره ان يحرك الشباب العربي ويشعل حماسهم في لحظة واحدة.

الشهر الفضيل

● ما هي إلا أيام قلائل حتى يهل علينا شهر هو من أعظم الشهور وأكثرها خيراً وبركة ألا وهو شهر رمضان الكريم شهر الرحمة والمغفرة وعلى الإنسان المسلم أن يهيء نفسه لاستقبال هذا الشهر بقلب سليم وصفاء ضمير ونية صادقة حتى ينال أجره ويكون ممن يصومونه إيماناً واحتساباً ويكون جزاؤهم الجنة.

شعر

الشاعرية في روائع سحرها أنت الذي سويتها وصنعتها
ما لي بها جهد فأنت سكبتها بدمي وأنت بمهجتي اودعتها
ما قال قومي آه الا جئتني وكويت احشائي بها ولسعتها

شارون يسأل الموساد :

كم بقي من علماء العراق؟؟

شوقي أحمد الحكيمي

□ لم أستمع لشارون وهو يسأل مخابراته هذا السؤال، لكنني أراهن أنه يفعل ذلك بعد مقتل كل عالم عراقي، لأن إسرائيل لا تفزعها لعنات الموتى، لأنها لا تؤمن بلعنة الفراعنة، لكنها تخشى من الأحياء حتى لو كانوا بكما، كما أنها لا تعدّ كم عدد الذين يخرجون في المسيرات ضدها، بل تعدّ كم الذين شغلهم العلم أو العمل عن الخروج.

ظل العراق هو الهدف الأهم الذي يجب ضربه لدى الإدارة الأمريكية الحالية، وهذا ليس استنتاجاً مني أو من سواي، بل هذا ما أكده منسق الاستخبارات الأمريكية السابق ونشره في كتابه وذكره أمام الكونجرس، كما أكد هذا الأمر الكثير من المسؤولين الأمريكان الذين استقالوا من هذه الإدارة، الأمر الذي استغله بنجاح «جون كيري» المرشح المنافس للرئيس بوش في المناظرة الأولى بينهما نظراً لأن هذا الأمر كان حقيقياً ويصعب تكذيبه.

إذاً، ورغم ما حل بأمريكا عام ٢٠٠١م فلم تكن طالبان أو القاعدة سوى هدف عسكري ثانوي بالنسبة للعراق، وإن كانت أمريكا قد شنت وتشن حملة هائلة عليهما، فلأن الإدارة كان عليها أن ترضخ لمشاعر شعبها الغاضب والمرعوب مما حدث لكن الرؤية الاستراتيجية للقضاء عليه، فما الذي كان يفزع أمريكا، أقصد (إسرائيل) في العراق ويدفع بالإدارة الأمريكية إلى هذه المغامرة المكلفة مادياً وبشرياً وأخلاقيا وسياسياً أيضاً؟ هل هو النفط؟ ربما، لكنها كانت تستطيع الحصول على ما تشاء منه وضمان استمرار ذلك دون تلك المغامرة، فهل هو الخطاب الرسمي المعادي لسياسة أمريكا، ولكن في أمريكا نفسها ثمة خطابات أكثر قسوة، وهناك حكومات ككوبا مثلاً لا تتوقف عن لعنها، هل هو تهديد الوجود الإسرائيلي والمصالح الأمريكية؟ أقول نعم، وهذا ما أكده جورج بوش في مناظرته لمرشح الرئاسة الآخر، وبصريح العبارة والمسألة معروفة، ولم آتي بجديد حتى الآن، ولكن يظل السؤال الجوهري هو : ما الذي كان العراق يمتلكه ويشكل تهديداً يستحق مغامرة غير محسوبة كهذه؟ هل هي أسلحة الدمار الشامل؟ لقد تأكد - وهو ما كانت أمريكا تعلمه قبل الحرب - أن العراق لم يعد يمتلك أي نوع من هذه الأسلحة، فهل هي علاقة العراق بالقاعدة، أيضاً أمريكا كانت تعلم كما كان معروفاً لدى الجميع، أن العراق كان أكثر الدول بعداً عن هذه المنظمات، كما أن تاريخ ما يسمى بالإرهاب ومن بداية القرن العشرين، وحتى تاريخ الغزو لم يسجل اشتراكاً عراقياً واحداً في تلك الأعمال حتى أن هناك من اعتبر العراقيين نموذجيين في هذه المسألة.

إذاً هل هو حزب البعث الحاكم سابقاً؟ أيضاً كلا، فهو فكر مثله مثل غيره له ما له وعليه ما عليه وشعاراته تردد بصيغ مشابهة أو مختلفة لدى كثيرين، والشعارات لا تشكل مشكلة هامة لأمريكا مهما كانت معادية.

إذاً هل هو النظام الحاكم، أيضاً لم يكن هذا الأمر بحد ذاته يثير مشكلة، فأمريكا تعلم أن التعامل سيكون مع حدة ذلك النظام بطريقة أو بأخرى، كما أن إسرائيل نفسها ليست قلقة من كره العرب لها وإلاّ لما استمرت في إثارتهم على الدوام، فاللص لا يتوقع أن يغفر له ضحاياه أو يذكروه بخير، كما أن الجيش العراقي، لا سابقاً ولا في لحظة الغزو، كان قادراً على تهديد وجود إسرائيل، فهل هي حوزات النجف وكربلاء هي التي أخافت إسرائيل وأمريكا؟

إذا لماذا جاءت أمريكا أو لنقل إذا أردنا أن نكون دقيقين لماذا جاءت إسرائيل إلى العراق؟ وأي تهديد كان يحوزه العراق دوناً عن غيره؟

الإجابة هي أن في العراق كان ثمة شيء مختلف عن سواها، وهو أن للعلم والبحث العلمي مكانة كبيرة ومتقدمة وليس مهماً إلى أي مدى كان قد بلغ، المهم مدى الاهتمام به والاعتقاد بأهميته والعناية به واحترامه من الجميع في تلك الدولة، ولا شأن لي، كما أن إسرائيل لم تكن تعنيها المسائل الأخرى حول النظام السياسي وطبيعته وأفعاله، فما أفزعهم وأثار إعجابي سابقاً وحزني الآن هو ذلك البناء العلمي الذي بدأته تلك الدولة مبكراً ومن عشرينيات القرن العشرين حتى أنها عام ١٩٧٠م كان لديها (١٣) جامعة، حتى أن العراق - حسب تقارير دولية - كان قد أصبح جاهزاً في بداية الثمانينيات للانتقال من وصفه دولة نامية إلى دولة متقدمة بما امتلكه من عقول مفكرة ومتخصصين مبدعين وأياد فنية مدربة وعلماء بحّاثة (وليسوا أساتذة جامعات يمضون كل وقتهم في التنقل بين الجامعات الخاصة والحكومية ليفرغوا أكبر قدر من المحاضرات المكررة لتزيد مداخيلهم كما يحدث في دول عربية أخرى) مع نهوض صناعي وعلمي ومعامل ومراكز أبحاث متخصصة وغير ذلك، مما أقلق الأعداء، فكان أن ألقي العراق في حرب طاحنة مع إيران ومع ذلك فقد تلقى العراق - أيضاً - اعترافاً من منظمة اليونسكو عام ١٩٨٧م بأنه أنجز مستوى متقدماً من القضاء على الأمية يبلغ (٨٠٪)، كما تنامى عدد العلماء وتضاعفت ملكة الاكتشاف والاختراع لدى خريجي الجامعات رغم تدهور الكثير من مناحي الحياة بسبب الحروب والحصار الذي استمر (١٣) عاماً، حتى أن العراقيين استطاعوا - رغم كل شيء - إصلاح البنى التحتية المدمرة خلال فترة قياسية وتقنيات وبدائل محلية أفضل، بما فيها المنشآت والأجهزة والأدوات الأكثر تعقيداً، في وقت ذكر فيه تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام ٢٠٠٢م أن نسبة إنفاق الوطن العربي على البحث العلمي عام ١٩٩٦م كانت فقط (٠,١٤٪) من الناتج المحلي الإجمالي، وفي مقابل ذلك أنفقت إسرائيل على البحث العلمي في ذلك العام وحده (٢,٥٣٪) من الناتج المحلي الإجمالي لها رغم أن أمريكا مستعدة لأن تقدم لها أحدث التقنيات التي تحتاجها، لكنه العلم الذي قال عنه «جواهر لال نهرو» مؤسس الهند الحديثة : «التكنولوجيا الحديثة ليست امتلاك آلة واستخدامها، إنما هي تتبع التفكير الحديث، فلا يمكن أن تمتلك آلة حديثة وتمتلك عقلاً قديماً، لأن الآلة لن تعمل»، ويقول - أيضاً - : «لقد توصلت إلى أن العلم لم يكن تحولاً مبهماً فقط، وإنما هو جوهر الحياة، إنه العلم وحده الذي يمكن أن يعالج مشاكل الجوع والفقر والأمية، ولا يمكننا أن نهمل أهمية العلم اليوم، لأن المستقبل للعلم».

هذا ما قاله «نهروا»، وها ما غير الهند لتصبح دولة ذات ثقل ويحتذى بها علماً وعملاً.

عموماً لقد كان بيت الحكمة الذي انشأه الخليفة المأمون في بغداد، والذي صنع أعظم حضارة علمية في ذلك الوقت، ومكن العرب بعد ذلك من اكتشاف خلطة النار الإغريقية، هذا السلاح الذي مكن البيزنطيين من صد المسلمين عن أبواب القسطنطينية لتستخدمه بعد ذلك ضد الصليبيين وتهزمهم .. تلك الانتصارات العربية التي نتذكر قادتها ولا نتذكر علماءها.

لقد كاد بيت الحكمة يعود إلى بغداد، ولكن كما فعل به التتار من قبل فعل به الأمريكان اليوم، وإسرائيل أذكى من أن يقنعها حريق الآلات، فها هو الموساد يتتبع العقول العراقية، فعلماء العراق الذين لا يقبعون في أبو غريب والذين لم يهاجروا بعد يتم اغتيالهم برصاص مجهولين، وقد اغتيل منهم - كما ذكر وزير التعليم العالي العراقي قبل أيام - (٣٧) عالماً بهم قتلت العراق وليس بأي شيء آخر، لأن بهم كانت الحياة، وعلى البقية أن يطمئنوا، وإن لعنوا أمريكا، لأن «جيف» الموتى لا يقربها أحد.

وجهة نظر

أسئلة كبيرة (١-٢)

إبراهيم المعلمي

■ نعتقد أننا بلغنا من الرشد ما يؤهلنا، لأن نميز بين ما هو غث وما هو سمين، وأننا بتنا قادرين على التفريق بين الصح والخطأ وبين الحقيقة والوهم، كما نعتقد أن ثمة تقاليد وأسساً ومبادئ أخلاقية ومهنية تعلمناها من مدرستينا العامة اليومية في الحياة والخاصة في صحيفتنا «الثورة»، واكتسبناها من رؤسائنا وأساتذتنا السابقين والقائمين على هذه المدرسة الصحفية العريقة عبر سنوات طويلة وتجارب مثيرة، بحلوها ومرها، بإيجابياتها وسلبياتها، بنجاحاتها وإخفاقاتها، حتى وصلنا إلى ما نحن عليه، وإلى ما نعتقد أنه خلاصة مبدئية أو نحسبه انجازاً مرحلياً أوجزئياً في مسيرة العلم والتعلم والعمل الصحفي.

■ ولعل أبرز هذه الدروس والأخلاقيات المهنية، هو التعامل الصارم والدقيق مع خصائص الواقع ومعطياته، والتعاطي معها بروح المسؤولية الوطنية المجردة من أية نوازع شخصية أو دوافع ذاتية.

■ وهذا التعامل المهني المجرد مع الواقع ومجرياته وحقائقه الماثلة للعيان، هو الويل الإجباري الذي ينبغي للصحفي ولكل من ينتمي لهذه المهنة، أن يتقبله، وأن يعتاد على تبعاته، وأن يتعايش مع نتائجه، وألاّ ينفر أو يتذمر من أولئك الذين تكشف عوراتهم على حين غرة، ومن حيث لا يعلمون، فيزبدون ويركضون ويرفسون، وتنتابهم حالة هستيرية من الخوف والقلق والاضطراب والارتباك.

■ وهي حالة ليست جديدة علينا، وليست بالظاهرة الاستثنائية، بل إننا نعيها ونفهمها ونتفهم أعراضها النفسية والعصبية التي تدفع بأصحابها لاستخدام كافة الأسلحة الدفاعية واستحضار كافة الوسائل الإنسية والجنية، المشروعة وغير المشروعة، الحقيقية والوهمية.. **(يتبع)**

almalmi@hotmail.com

مبادرة إنسانية أخرى لمؤسسة «الصالح»

عبدالله البحري

● لم يتوقف نشاط مؤسسة الصالح الاجتماعية والتنموية عند سقف برنامجها وخطتها المرسومة وحسب. بل أن نوعاً من الواجب الانساني والوطني الذي تشهده هذه المؤسسة الرائدة بات محققاً ومنفذاً وتحديداً خلال هذه الأيام ليضاف هذا الواجب إلى رصيد تلك الأعمال والمهام التي تقوم بها، ولعل مواقف وحملات الاغاثة المخصصة لصالح دعم ومساعدة كافة المتضررين جراء ما أحدثه المدعو الحوثي وعصابته في مران وحيدان بمحافظة صعدة قد جعلتنا كمتابعين وراصدين لأنشطة وأعمال مؤسسة الصالح والقائمين عليها على يقين بأن عملاً انسانياً كهذا يستحق الاشادة والتقدير لكونه جاء من منطلق ما يدعو وينادي إليه فخامة الرمز الهمام الأخ الرئيس علي عبدالله صالح وما يوجه به الحكومة ومختلف المؤسسات والقطاعات والمرافق الخدمية حيث جاءت مبادرة هذه المؤسسة مؤسسة الصالح الاجتماعية التنموية وعبر إعداد وتجهيز غير نوع وصنف من أهم وأبرز المواد العينية وذات الارتباط المباشر بحاجيات ومتطلبات مواطني وأهالي تلك المنطقة المنكوبة بسبب أعمال التخريب ومن عاث فيها فساداً ممثلة في المدعو الخائن لوطنه وأرضه « الحوثي» وأعوانه الذين غضب الله عليهم ومقتهم كل الشرفاء اليمنيين وحتى من كان يعيش معه في تلك المنطقة

إن أعمالاً إنسانية ذات دلالات قد عهدنا ها وعلى هيئة مبادرات سريعة كانت ولا تزال من بين أهداف مؤسسة الصالح الاجتماعية التنموية نعتبرها للخطة ناجحة وتحقق ما كنا نتمناه ونصبو إليه جميعاً من أي جمعية أو مؤسسة اجتماعية داخل الوطن تقوم بتقديم مثل هذ الأعمال الطبية ونحوها من الأعمال المساندة والداعمة لغير شريحة وفئة بمجتمعنا سواءً من الشباب من الجنسين أو من أولئك المستهدفين من خدمات هذه المؤسسات والجمعيات غير الحكومية ولعمري بأن مؤسسة الصالح الاجتماعية التنموية هي الأبرز من حيث العمل المنظم والترتيب الإداري والميداني وكذا من حيث التوسع في خططها وبرامجها البعيدة والنائية عن الأعمال والمؤثرات السياسية والتي نتمنى على بعض المؤسسات والجمعيات الأخرى بأن تحذو حذوها وليس من قبيل المزايدة إذا قلت بأن مؤسسة الصالح أصبحت على مستوى الساحة تمثل القدوة الحسنة من حيث ما ذكرناه ناهيك عن كونها ذات أهداف نبيلة وانسانية وهذا ما يجعلنا نشيد بها وبأعمالها ومهامها الاجتماعية والتنموية والانسانية البحتة وخاصة بآخرها التي نعتبرها مهام إغاثة في محلها لأهالي وأبناء وشيوخ مديرية حيدان والقرى التابعة لها والله موفق كل من يعمل بصمت وعبر هذه المؤسسة ودون التطرق بالاسم للقائمين عليها..

الاشكاليات الاسرائيلية للتسوية الفلسطينية

ماجد كيالي ●

□ .. لايقتصر اعتراض التسوية على بعض الاتجاهات في الساحة الفلسطينية (والعربية عموما) فثمة اعتراض اسرائيلي أيضا. والمفارقة أن هذه التسوية التي تعتبر مجحفة بالمعايير التاريخية والقانونية بحق الفلسطينيين تلقى مقاومة عنيدة من بعض الاتجاهات المتطرفة في اسرائيل المحسوبة على تيار اليمين والوسط (الديني والقومي)؛ والتي ترى في التسوية المتضمنة مجرد الانسحاب من معظم الأراضي الفلسطينية المحتلة والاعتراف بحق الفلسطينيين في إقامة دولة لهم فيها انحرافا عن الصهيونية وكارثة ربما تؤدي بإسرائيل.

للأسف فإن هذه المعارضة لم تلق الاهتمام المناسب بها في التحليلات العربية فالخطاب العربي عموما اعتاد التعامل مع اسرائيل بوصفها كتلة صماء وظاهرة سرمدية لا تخضع لتفاعلات أو إلى تطورات وتغيرات! وحتى إذا فرضت بعض التغيرات أو التناقضات الاسرائيلية نفسها على مسرح الأحداث فإن هذه التحليلات غالبا ما تستهتر بها أو تحيلها إلى نوع من مسرحية معدة مسبقا أي باعتبارها شأنا لا يستحق الاعتبار لا في استراتيجيات الصراع ولا في تاكتيكاته!

عموما لايجد الخطاب العربي نفسه معنيا بتفحص الداخل الاسرائيلي وما يعتوره من تعددية أو تناقضات باعتبار ذلك فائضا عن الحاجة أو ترفا (وربما انحرافا) فكريا باعتبار أن اسرائيل هي عدو بالجملة وبالتفصيل وكفى.

اللافت في مناقشة هذا الموضوع أن المعارضة الاسرائيلية للتسوية خصوصا مع الجانب الفلسطيني احتلت المشهد السياسي الاسرائيلي منذ التوجه لعقد مؤتمر مدريد (١٩٩١م) وخصوصا بعد عقد اتفاق أوسلو (١٩٩٣م) وإلى الآن. وطوال هذه المرحلة اتضح أن اسرائيل هي التي تعوق هذه العملية وتسعى للتملص من استحقاقاتها (أكثر بكثير مما يعوقها العرب) برغم كل الاجحاف الكامن فيها بالنسبة لحقوق الفلسطينيين؛ وذلك على خلاف الانطباع السائد في الساحة العربية بأن اسرائيل تلهث وراء التسوية.

ويمكن ملاحظة ذلك بسهولة. فاسرائيل في ظل شامير عارضت مؤتمر مدريد ودخلت في مواجهة مع إدارة بوش الأب وهي شهدت مصرع واحد من أهم رؤساء حكوماتها وهو اسحق رابين(١٩٩٥م) على يد متطرف اسرائيلي لكونه وقع اتفاقا للتسوية مع الفلسطينيين. وبعد ذلك صعد بنيامين نتنياهو إلى الحكم لاجهاض هذه العملية. وفي ظل حكومة باراك نشطت جماعات المستوطنين لفرض واقع الاحتلال بالاستيطان في الأراضي المحتلة. وبعد ذلك جاء شارون ليحرر اسرائيل تماما من استحقاقات اتفاق اوسلو بهذه الحجة أو تلك.

وطوال هذه الفترة لم تكمل أية حكومة ولايتها الدستورية وذلك بسبب الخلافات الحاصلة بين التيارات الاسرائيلية بشأن عملية التسوية.

ومؤخرا شهد شارون بكل ما يمثله في اسرائيل هزيمتين في حزبه الليكود لمجرد طرحه خطة للانسحاب من طرف واحد من قطاع غزة وأربعة مستوطنات في الضفة الغربية! أي أن حزب الليكود هزم زعيمه الذي يحظى بتأييد ٦٥ ـ ٧٠ بالمئة من المجتمع الاسرائيلي والذي جلب له نصرا بحجم ٤٠ مقعدا في الكنيست لمجرد طرح خطة تتطلب الانسحاب من ٣٦٠ كم مربع فقط (وهي مساحة غزة) وإجلاء بضعة آلاف من المستوطنين فيها من حوالي ٤٠٠ ألف مستوطن في الضفة والقطاع؛ برغم أن هذه الخطة لاتمت بصلة مطلقا إلى المجالات المتعلقة بقضيتي القدس واللاجئين!

ويمكن تفسير الاحجام الاسرائيلي عن الاستجابة لاستحقاقات عملية التسوية بانقسام المجتمع الاسرائيلي على نفسه في هذا الموضوع. فبرغم الاجماع الاسرائيلي حول أمن اسرائيل وهويتها اليهودية ورفض حق العودة للفلسطينيين والتمسك بالقدس عاصمة لدولة اسرائيل والعلاقة مع الولايات المتحدة فإنه ثمة طيف واسع من الخلافات بشأن مساحة الأراضي التي ينبغي الانسحاب منها وقضايا الحدود والمستوطنات والدولة الفلسطينية والتعاون الإقليمي.

بالنسبة للتيارات اليمينية القومية والدينية في اسرائيل فإن عملية التسوية تفترض ترسيم حدود اسرائيل: الجغرافية والبشرية والسياسية ما ينتهك مبررات وجودها الأيدلوجية ـ الصهيونية والأسطورية وما ينتقص من دورها السياسي الوظيفي المفترض بتحويلها إلى مجرد دولة عادية في المنطقة.

وهذه التيارات تركز على إعلاء شأن الصراع العربي ـ الاسرائيلي (الخارجي) وعلى التعبئة الأيدلوجية الصهيونية والاستيطان باعتباره قيمة عليا وعلى قوة اسرائيل وفرادتها في المنطقة وعلى أرض اسرائيل الكاملة مقابل دولة اسرائيل وعلى الشعب اليهودي مقابل شعب اسرائيل. وهي تنطلق في مواقفها من أن اسرائيل قادرة على فرض التسوية (تسوية الأمر الواقع على العرب) بوسائل القوة والإملاء. وأما بالنسبة للمشروع الشرق أوسطي فهذه التيارات لا ترى أية ميزة بالتعاون الإقليمي للدرجة التي تفرض على اسرائيل تقديم تنازلات معينة مقابله بحكم علاقات اسرائيل الدولية وتقدمها الاقتصادي وهي ترى بأن على الولايات المتحدة أن لا تتدخل في شؤون اسرائيل التي لا تدين لها بشيء! بل على العكس فإن الولايات المتحدة الامريكية هي التي تدين لاسرائيل!

من كل ذلك يتبين بأن عملية التسوية مع الطرف الاسرائيلي ليست عملية سهلة أو عملية مسلم بها فثمة اشكاليات عديدة تعاني منها اسرائيل تجعلها حذرة وأميل إلى الاحجام عنها ولعل أهم هذه الاشكاليات تكمن في الجوانب التالية:

أولا: أن الصراع بين الفلسطينيين والاسرائيليين يكتسب طابعا فريدا في نوعه فالصراع هنا ليس بين الشعب الفلسطيني والدولة الاسرائيلية المغتصبة أو المحتلة فحسب وإنما هو أيضا صراع مع المجتمع الذي ينتمي لهذه الدولة ويتماهى مع أيدلوجيتها وسياساتها. وهذا الصراع لا يقتصر على الجوانب العسكرية أو الأراضي وإنما يشمل الرموز والرواية التاريخية والمعتقدات الدينية وهذا الصراع في الإدراك الاسرائيلي يبدو كأنه صراع على الأرض ذاتها وعلى الوجود (يختلف عن الانسحاب من سيناء أو الجولان أو جنوب لبنان).

ثانيا: الترابط بين الاستحقاقات الداخلية والخارجية ، فالتسوية مع الفلسطينيين تتطلب من اسرائيل تعريف حدودها وهويتها ودورها في المنطقة وهو ما يفسر التعقيدات المتعلقة بهذه العملية. فالانسحاب من الأراضي الفلسطينية يقوض أسطورة "أرض الميعاد" والاعتراف بالشعب الفلسطيني يقوض أسطورة "أرض بلا شعب" وهذا يعني مراجعة اسرائيل لمبررات وجودها وقطعها ركيزتين من ركائز الصهيونية التقليدية. لذا فإن النقاش حول التسوية يبدو وكأنه نقاش يخص الاسرائيليين وحدهم وكأنه نقاش داخلي لا علاقة للأغيار به.

ثالثا: الطابع التاريخي والسياسي الملتبس للدولة العبرية فهذه الدولة لم تنشأ بنتيجة التطور التاريخي الطبيعي للتجمع اليهودي في فلسطين وإنما بفعل عمليات الهجرة الاستيطانية ـ الإحلالية وبرغم إرادة أهل الأرض الأصليين وبفضل القوة والهيمنة والعون الخارجي. وبسبب من ذلك فإن اسرائيل على خلاف الدول العادية تتهرب من إيجاد أجوبة حاسمة على الأسئلة المطروحة عليها. والمشكلة أيضا أن طبيعة النظام السياسي فيها يتطلب نوعا من الاجماع لاسيما في قضية كقضية التسوية وهو غير متوفر في الظروف الحالية. واللافت أن اسرائيل استثمرت اللعبة الديمقراطية فيها للتملص من عملية التسوية والاطاحة بها.

رابعا: طوال المرحلة الماضية اتضح أن اليسار في اسرائيل (كما تمثل بحزب العمل) غير ناضج تماما لعملية التسوية وأنه تبناها للتكيف مع المتغيرات الدولية والإقليمية ومع الاستراتيجية الأميركية في المنطقة لانتزاع أكبر قدر من المكاسب والمكافآت من العرب ومن الولايات المتحدة في مقابل الانسحاب من الأراضي المحتلة؛ على شكل قبول العرب برواية اسرائيل للصراع في المنطقة والدخول معها في علاقات وترتيبات أمنية وسياسية واقتصادية وأمنية ثنائية وإقليمية وتعزيز العلاقة الاسرائيلية ـ الأميركية. وهذا التيار ينطلق من دعمه للتسوية من واقع الحفاظ على اسرائيل وهويتها اليهودية وصورتها الديمقراطية وهو يرى بأن الانسحاب من الأراضي المحتلة يجنب اسرائيل المخاطر الديمغرافية الناجمة عن وجود ثلاثة ملايين عربي في الضفة والقطاع ويحافظ على نقاوة الدولة اليهودية ويخلصها من الأعباء السياسية والأمنية والأخلاقية الناجمة عن الاحتلال. هذا فضلا عن أن هذا الاتجاه وبسبب من تطورات العولمة الاقتصادية والتغير في عناصر القوة لدى الدول لم يعد يرى أن مساحة الدولة مهمة لاستقرار اسرائيل وازدهارها بقدر ما بات يرى ذلك في ميدان التطور الاقتصادي والتكنولوجي والعلمي بخاصة بعد أن ضمنت الولايات المتحدة أمن اسرائيل وتفوقها في المنطقة. ومعنى ذلك أن المقاربة البرغماتية لهذا الاتجاه والتي تنبني على الاستعداد للانسحاب من معظم الأراضي الفلسطينية المحتلة والاعتراف بالشعب الفلسطيني بما في ذلك حقه في إقامة دولة مستقلة ليس لها علاقة بالمصالحة التاريخية أو بمفاهيم الحق والعدالة بقدر ما هي تتعلق بحسابات السياسة الدولية والاقليمية ومصالح اسرائيل باعتبارها دولة يهودية.

خامسا: عمليا فإن اسرائيل تستمد غطرستها في عملية التسوية من تفوقها العسكري والاقتصادي وانتمائها للغرب ومن تغطية أقوى دولة في العالم (الولايات المتحدة) لسياساتها وضمانها لأمنها وتفوقها في المنطقة.

وتدل التجارب بأن المجتمعات الاستيطانية المصطنعة بخاصة المجتمعات الأيدلوجية (القومية والدينية) والعنصرية تحتاج إلى وقت كبير وإلى تجاذبات وضغوطات عديدة ومتواصلة حتى تحسم خياراتها. وفي واقع كهذا فإن البنى والدوافع الداخلية لوحدها تشكل شرطا ذاتيا لازما ولكنه ليس كافيا لعملية التغيير التي تحتاج إلى عوامل دفع وضغط خارجية إلى الدرجة التي تحيّد عناصر قوتها وتهدّد مصالحها ما يجبر هذه المجتمعات على مراجعة خياراتها وسياساتها هذا ما حصل في الجزائر وفي جنوب افريقيا وهذا ما ينطبق على اسرائيل ذاتها إلى حد كبير كما بينت التجربة.

لذلك فإن اسرائيل (بوضعها هذا) ستبقى عقبة كأداء أمام عملية التسوية وهو ما ينبغي وضعه بعين الاعتبار وعدم الارتكان على مقولة أن التسوية هي مصلحة خالصة لاسرائيل وما ينطبق على اتفاق أوسلو ينطبق على خطة شارون.

● كاتب فلسطيني